

توهمات الجابري بين العرفان والموروث الهرمسي

دراسة نقدية في كتاب بنية العقل العربي

م.م. حنان عيدان الزبيدي

جامعة الزهراء (عليها السلام) للبنات

hanan.eidans@alzahraa.edu.iq

المستخلص

في العقود الأخيرة انشغل الفكر العربي بمشاريع معرفية بارزة، من أهمها مشروع محمد عابد الجابري الموسوم بـ نقد العقل العربي، المؤلف من أربعة أجزاء. ويُعد الجزء الثاني، بنية العقل العربي، من أبرزها، حيث يرى الجابري أن العقل العربي يستند إلى البيان والعرفان والبرهان. وقد ركز هذا البحث على العرفان، إذ أرجعه الجابري إلى الموروث الهرمسي الأسطوري، مع اختلاف الآراء حول شخصية هرمس. كما تناول معنى الكشف والشهود عند العرفاء، محاولاً الطعن فيهما بوصفهما امتداداً لذلك الموروث. وذهب إلى نسبة بعض خطب الإمام علي (عليه السلام) إلى العرفان الهرمسي، مع أن الإمام يُعد المؤسس الأول للعرفان الإسلامي، والشريعة أوائل من تبوّه. وقد خلص البحث إلى أن الجابري قرأ التراث الشيعي قراءة خارجية، متأثراً بالمستشرق هنري كوربان ومصطلحاته، وأنه سعى إلى تقويض آليات العرفاء المعرفية في فهم النصوص الدينية.

اعتمد البحث المنهج التحليلي النقدي.

الكلمات المفتاحية: العرفان، هرمس، التصوف، الكشف.

Abstract

portraying them as Hermetic legacies, and even attributes some sermons of Imam Ali (peace be upon him) to Hermetic gnosis— despite Imam Ali being regarded as the first founder of Islamic gnosis and the Shi'a its earliest adherents. The research concludes that al-Jabri approached Shi'i heritage from an external perspective, influenced by the Orientalist Henry Corbin and his terminology,

aiming to undermine the epistemological methods of mystics in interpreting religious texts.

The study adopts a critical analytical methodology.

Keywords: Gnosis, Hermes, Sufism, Unveiling.

المبحث الأول: تمهيد

بداية العرفان الإسلامي

بدأ العرفان الإسلامي في مرحلة متأخرة على ظهور الحركة الصوفية في العالم الإسلامي، والتي بدأت تباشرها مع بداية نزول الوحي، وهذا ما نجده في حال الزهاد والعباد الذين شكّلوا نواة المتصوّفة في العالم الإسلامي، حيث عُرفوا في المرحلة الأولى باسم الزهاد والنسّاك، وليس باسم الصوفية. وكان باعتماد هؤلاء الأشخاص صافياً، وإيمانهم نقياً خالصاً، لم تُداخلهم الأفكار الفلسفية والكلامية، وكان جلّ ما يريدون، الاستجابة لنداء الوحي، وأن يكونوا من عباد الله المخلصين.

اتّسعت الحركة الصوفية وانتشرت، وأصبحت تجمع شيئاً فشيئاً العدد الكبير من الأشخاص الذين شكّلوا في مرحلة لاحقة مدرسة خاصّة، كان لهم أفكارهم وسلوكياتهم ومظاهرهم التي تميّزهم عن غيرهم، والتي انتهت في المرحلة اللاحقة على القرن السابع، وأدت إلى ظهور علم العرفان. وبشكل عام يمكن التمييز بين مراحل ثلاث للعرفان الإسلامي:

المرحلة الأولى: ظهور وتكامل العرفان العملي.

المرحلة الثانية: تدوين وشرح العرفان النظري.

المرحلة الثالثة: أفول مشايخ الصوفية من الناحيتين العلمية والعملية، والتوجّه نحو العرفان العملي القائم على أساس الفكر الشيعي.

المرحلة الأولى: تبدأ المرحلة الأولى من القرن الأول الهجري إلى القرن السادس، وتمتاز بالخصائص الآتية:

١- رواج حالات التصوّف وشيوعها بين الأفراد.

٢- بداية ظهور العرفان العملي من خلال ميل بعض المؤمنين نحو الزهد والعبادة (القرن الأول الهجري).

٣- ظهور بعض المفاهيم التي راجت على ألسنتهم، كالعشق والحبّ الإلهيين، والتوجّه نحو باطن الشريعة (القرن الثاني الهجري).

٤- الشروع بالاهتمام بالعرفان النظري (القرن الثالث).

٥- تكامل العرفان العملي، وتدوين أصول السير والسلوك، والبدء بالحديث عن دور الشريعة في الوصول إلى الحقيقة (القرن الرابع).

٦- وصول العرفان إلى أعلى مراتبه، وإقبال الناس عليه، وظهور مشايخ العرفاء وامتزاج أبحاثهم بالأفكار الكلامية والفلسفية (القرنين الخامس والسادس).

من أبرز الشخصيات في هذه الفترة: الحسن البصري، إبراهيم الأدهم، رابعة العدوية، أبو هاشم الصوفي، بايزيد البسطامي، بشر الحافي، السري السقطي، الجنيد البغدادي، الحسين بن منصور الحلاج، أبو سعيد أبو الخير، الهجويري، الخواجه عبدالله الأنصاري...

المرحلة الثانية: تتراوح هذه المرحلة بين القرنين السابع والعاشر الهجريين، وتمتاز بانتشار العرفان وسيطرة العرفان النظري بالأخص، مع وجود شخصيات كبيرة من أمثال ابن عربي (م ٦٣٨هـ.) وظهور الشروحات على أفكار وكتابات ابن عربي، ووجود بعض الحركات الصوفية والعرفانية الشيعية. وفي هذه المرحلة أيضاً بدأ الجمع بين العرفان والدين، وفي هذا الإطار تأتي الجهود التي بذلها الشيخ البهائي (م ١٠٣٠هـ.) وأمثاله، وقد أدت في النهاية إلى أفول التصوّف. من أبرز الشخصيات في هذه المرحلة: شهاب الدين السهروردي الزنجاني، ابن عربي، القونوي، جلال الدين الرومي، محمود الشبستري، السيد حيدر الأملي، صائن الدين علي بن تركه الأصفهاني، الفناري...

المرحلة الثالثة: بدأ مشايخ الصوفية يفقدون الأبعاد العلمية والثقافية التي كانت تحيط بهم، وغرق التصوّف في المظاهر والكثير من البدع. وفي هذه المرحلة، أي ما بعد القرن العاشر الهجري، بدأ التخصص في العرفان النظري، واتسعت الدراسات التي تناولت ابن عربي، واقترب العرفان والتصوّف من الشرع والفلسفة والكلام، وذلك مع وجود شخصيات هامة في العالم الإسلامي من أمثال صدر الدين الشيرازي (م ١٠٥٠هـ.ق).

والخلاصة، أنّ العرفان بدأ في القرون الأولى على صورة ممارسات يشكّل الزهد والعبادة جوهرها، ثمّ انتقل ليشتغل حالة وحركة خاصة لها ما يميزها، ومن ثمّ أصبح مدرسة علمية وفكرية لها أسسها ومبادئها ونظرياتها^١

المنهج العرفاني

في هذه المقدمة المهمة ربما يثير اهتمام القارئ حول طرح هذه المقدمة في هذا البحث وماهي الحاجة إليها هنا، وماهي أهميتها وسوف نتعرف على ذلك في المبحث الثاني ونرى مدى الحاجة إليها.

إن المناهج المعرفية هي من تبني رؤية كونية حول الله والإنسان والكون.

المنهج العرفاني: من المناهج التي سلكت في تكوين رؤية كونية "المنهج العرفاني"، أو ما يسمى بـ "المنهج الوجداني" و"الطريق الصوفي" وطريق الإشراق والكشف والشهود وهو لا يختص بالدين الإسلامي، بل هو موجود في سائر الأديان يُعتمد فيه على أداة "القلب" في معرفة الواقع، وتسمى المعرفة الحاصلة من هذا الطريق بالمعرفة الشهودية والقلبية، وبالعلم الحضورى أيضا. أما ما هو المراد من القلب عند أهل هذا الفن؟ فقد ورد فالقلب والروح عندنا، والمطمئنة كلها أسامي النفس الناطقة، والنفس الناطقة، هي الجوهر الحي الفعال المدرك، وحيثما تقول الروح المطلق أو القلب فإنما نعني به هذا الجوهر»^٢.

فالمراد من القلب هو (جوهر النفس الناطقة)، فهو وإن كانت كلمات القوم مختلفة في بيانه إلا أنها تشير إلى شيء واحد وهو هذا المعنى (النفس الناطقة).^٣ أما ما هو المنهج العرفاني اصطلاحاً؟ وما هي طبيعته وأتى شريحة اتخذت هذا السبيل بابا لمعرفة الحقيقة، فقد جاء: إن الذين اعتمدوا على المكاشفات القلبية هم العرفاء من الصوفية ومن هذا حذوهم، في معرفة حقائق الأشياء.^٤

والكشف كما في المصادر هو: بيان ما يستتر على الفهم فيكشف عنه للعبد كأنه رأي عينه، وهو وسيلة إدراك المعرفة الذوقية التي هي علوم باطنية مركزها القلب، ولا طاقة للعقل والحس باكتشافها، ومنبع الكشف هو قلب الإنسان بذاته وعقله المنور العملي المستعمل لحواسه الروحانية، فإن للقلب عيناً وسمعا وغير ذلك من الحواس.^٥

العرفان والهرمسية عند عابد الجابري

يتحدد العرفان عند الجابري بالمجال من الروحانيات والهواجس والعقائد والخرافات والسحر والخوارق والأساطير .. أو بتعبير مختصر هو اللامعقول، الذي تغلغل في ثنايا العقل العربي وفرض عليه رؤية ميثولوجية للكون شكلت يتفرعاتها المانوية والزرادشتية والأفلاطونية المحدثة والإسرائيليات حلفا قويا ساهم في غزو نظام البيان العربي الإسلامي واحتل مواقع أساسية ومتجذرة في الثقافة العربية الإسلامية كعقل مستقبل خلال مرحلة الترجمة والتأليف. إذا فالعرفان كنظام معرفي قد انتقل إلى الثقافة العربي الإسلامية ضمن الموروث اليوناني، وأنه كان من جملة العناصر الأولى إلى جانب (الكيمياء والتنجيم) التي انتقلت من هذا الموروث غير مدارس الاسكندرية ثم أنطاكية وأفامية الخ

لقد سمى الجابري هذا اللامعقول العقلي بالعقل المستقبل، وهو يرى أنه يشكل الموروث القديم الذي ورثه العرب عن الديانات والفلسفات القديمة. ويؤكد الجابري أن أقوى تيارات الموروث القديم الذي كان له تأثير في الثقافة العربية هو الهرمسية وتعاليمها الدينية والفلسفية، وتميز الهرمسية بين الهين الذين أحدهما مسخر للاخر:

الاله المتعالي: الذي لا يصدق عليه وصف ولا تدركه العقول ولا الأبصار، ولذلك كان من غير الممكن التوصل إلى معرفته عن طريق تأمل الكون ونظامه أي عن طريق العقل والحواس، إن الكون لا يدل عليه ولا يرشد إليه لأنه لا علاقة له به .

الإله الخالق الصانع هو الذي خلق العالم ولذلك فهو يتجلى فيه. يمكن إدراكه والتعرف عليه بتأمل الكون ونظامه من أجل ذلك يقال أنه في كل مكان أينما اتجه الإنسان ببصره وجده فكل شئ شاهد عليه، والطريق إلى معرفة (الإله المتعالى) هي النفس لأنها جزء من الإله، إنها تستطيع معرفته حق المعرفة عندما تتمكن من الاتصال به والعودة إليه، أما العقل فهو في نظرهم إنما يستمد مدركاته من الأجسام وهو لا يؤدي إلى معرفة الله، إذا فالنفس البشرية في نظرهم كائن إلهي كانت تعيش في الأصل في العالم الإلهي ثم ارتكبت ذنباً فكان عقابها هبوطها إلى البدن وسبيل تخليصها هو المعرفة لا بمعنى العلم بل ببذل مجهود متواصل قصد تطهيرها من المادة والاندماج، من جديد في العالم الإلهي بل الفناء في الله، وهذا هو التصوف الهرمسي عند الجابري^٨.

يبدأ الجابري بالبحث عن اللامعقول في ثنايا العقل العربي الذي يجد تعبيره في نظام العرفان. يميّز الجابري هنا بين عرفانين: "العرفان كموقف (فردى ونفسى وعملى، يتلخص في رفض العالم ونشدان الاتصال بالإله والدخول معه في نوع من الوحدة)^٩ والعرفان كنظرية "يطغى فيه التفسير والتأويل ومحاولة تشييد نظرية دينية فلسفية تشرح تطور الخليقة من المبدأ إلى المعاد"^{١٠}

ما يهمننا هو العرفان كنظرية، كرؤية ميثية (أسطورية) لله وللكون والإنسان، وجدت تعبيرها في ملحمة التكوين الهرمسي (رؤيا هرمس)، وشكّلت، بتفرعاتها المانوية والزرادشتية والأفلوطونية المحدثة والإسرائيليات، حلفاً قوياً ساهم في رقد وغزو نظام البيان العربي الإسلامى (المعقول العقلى الدينى العربى الذى يتحدد بثلاثة عناصر: القول بوجود معرفة الله، والقول بوحده، والقول بالنبوة^{١١}). كل عناصر اللامعقول الذى تتحدد عناصره بعكس عناصر المعقول الدينى العربى الذى يمتح من الموروث القديم.

في كتابه الهام المَعْتُون ببنية العقل العربى حظيت الرؤية الهرمسية الأسطورية للكون وبدء الخليقة بالكثير من التفرد. فبعد أن عرض لها في كتابه الموسوم بتكوين العقل العربى، قام في بنية العقل العربى بنقل هذه الرؤية الأسطورية بنصها إلى العربية، وقام بالشرح والتعليق عليها، وتابع تغلغلها في الفكر العربى الإسلامى عند الشيعة (أول من تَهَرَّمَس في الإسلام)، ثم تابع تحولاتها داخل هذا الفكر، كما تجسدت في فكرة الإمامة، ثم انتقالها إلى المتصوفة الإسلاميين من السنة، كما يتجلى في شرحه لنصّ الجنيد وابن عربى، ويركز الجابري على رؤيا هرمس لأنها، من وجهة نظره، تنحو منحى أسطورياً يقدم الحل لمشكلة الشرّ في العالم. وفي دراسته لأسطورة الخليقة الهرمسية، باعتبارها المنهل الذى ينهل منه جميع العرفانيين، يميز الجابري بين مراحل عدة من مراحل الخلق

المرحلة الأولى: التقرير بأولوية النور؛ فالنور هو العقل (الإله الأب).

المرحلة الثانية: انفصال النور عن النار انفصلاً نهائياً.

المرحلة الثالثة: إنجاب الإله الأب للابن (الإله الصانع).

المرحلة الرابعة: ظهور الإنسان السماوى الأول على صورة الإله الأب الكلى.

المرحلة الخامسة: تتضمن حديثاً عن يوم المعاد ومرحلة ما بعد الموت وعودة الروح إلى بارئها^{١٢} نلاحظ هنا إن الجابري يشبه هذا التقسيم في رؤيا هرمس الى خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) في تكوين الخلق.

الرؤيا الهرمسية هي البئر الذي يمتح منه العرفان كموقف والعرفان كمنظريّة. وهذه الرؤية سوف تمهّد للانسحاب من عالم الواقع إلى عالم العقل المستقل، وسيتاح لها، في القرنين الخامس والسادس الهجريين، أن تغزو نظام البيان العربي الإسلامي من خلال المتصوفة (ابن عربي والجنيد وغيرهما) الذين سعوا إلى تأسيس البيان على العرفان، بعكس ما فعله ابن رشد الذي عمل على تأسيس البيان على البرهان؛ وبذلك مهّدوا لاستقالة العقل العربي في المشرق العربي أولاً، وفي المغرب العربي والأندلس لاحقاً، لتكتب عليه الغربة في أرض أخرى - وطوبى للغرباء!

إن العرفاني الذي يمتح من الأسطورة الهرمسية ويدّعي الكشف والرؤيا والحلم والتأويل ("الشطح"، على حد تعبير الجابري) يمارس أبسط أنواع التفكير وأدنى درجاته، ويكرّس باستمرار الهروب إلى عالم العقل المستقل؛ بالإضافة إلى أنه يساهم في تكريس نظرة سحرية للعالم من خلال العرفان، كموقف وكنظريّة. ولنترك للصياغة الجابرية تأخذ مجراها:

العرفان، كموقف وكنظريّة، تكريسٌ للنظرة السحرية للعالم، أولاً وأخيراً؛ فهو تكريس أيضاً للبنية العامة للثقافات القديمة التي يشكل فيها الفكر السحري، وليس العلم، الفاعل الأساسي - هذا حسب معلوماتنا الراهنة (القول للجابري). وهل يمكن تحقيق نهضة بالسحر؟^{١٣}

نستنتج من هذا ما يأتي:

- ١- إنتشر المصطلح والتعريف عن العرفان في آخر القرن الرابع قبل الميلاد ويمتد هذا المصطلح والتعريف الى القرن السابع بعد الميلاد حينما نزل الإسلام إلى عالم العرب.
- ٢- العرفان ينفصل إلى فصلين العرفان الموقفي والعرفان النظري.
- أ-العرفان الموقفي هو رأي الشخص الى العالم بشكل عام، هذا الموقف يحاول أن يبتعد ويفر عن العالم لأن العالم عند هذا الموقف كالجيفة الرذيلة.
- ب- العرفان النظري هو أن يضع الشخص نفسه يتصادم بالعلم ويخرجه إلى الأصول الإلهية. اذا المشكلة الأساسية في هذا الموقف هي المشكلة الفلسفية.
- ٣-يتطور عن العرفان الموقفي من المتصوفة وأصحاب الأحوال وأما العرفان النظري يتطوره شيعة الإسماعلية والفلسفة الباطنية.

المبحث الثاني: مادة النقد وتحليلها

المعارف الكشفية عند العرفاء و الموروث الهرمسي.

إن ما يدعيه الدكتور الجابري و يقول " مامن فكرة عرفانية يدعي العرفانيون انهم حصلوا عليها عن طريق الكشف سواء بالمجاهدات او الرياضات او بواسطة قراءة القرآن الا ونجد لها أصل مباشر وغير مباشر بالموروث العرفاني (لاجديد تحت الشمس)"^{١٤}

وهنا بعد ان تطرقنا في المبحث الاول الى الموروث العرفاني و علمنا أن المراد منه هو الموروث الهرمسي، وبعد ان تعرفنا على معنى الكشف والشهود ومعياره وأدواته نرى الجابري بعد أن قال في نسبة التصوّف والعرفان إلى الموروث الهرمسي، ثم بعد هذه النتيجة الكلية والمطلقة يأخذ نتيجة خاصة بالتأويل العرفاني وبالكشف بالإلهام، إن هذا يعني أن التأويل العرفاني للقرآن هو تضمين، وليس استنباطاً، ولا إلهاماً، ولا كشفاً^{١٥}. وقد بيّن مقصوده أيضاً من التضمين، المصطلح البلاغي، حيث قال: إن دعوى العرفانيين الإسلاميين استنباط معارفهم من القرآن، وأنهم إنما يستعملون في ذلك لغةً مقتبسة من لغة القرآن، إن دعوى العرفانيين الإسلاميين هذه غير صحيحة في نظرنا. بل الصحيح، في رأينا، أنهم أخذوا كل ذلك من الموروث العرفاني القديم، وألبسوها لباساً إسلامياً^{١٦}.

أن ما يخصنا في هذا البحث إن الجابري ينكر الكشف والشهود عند العرفاء ويرجع كل ماجاء بالكشف فإن أصله هرمسياً.

ومن هنا فإذا أردنا الرد على الجابري نوجه له تساؤلاً، هل إنك تقصد من الموروث الهرمسي هي الطريقة ام النتيجة المضمونية للكشوفات ؟ وبعد تقديم المقدمات وجدنا أن الجابري يقصد منه ليس فقط الطريقة إنما هي الطريقة ومضمون الكشف ومايدل على ذلك يحاول أن يطابق الكشف الهرمسي برويا هرمس في إنشاء الخلق مع خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في تكوين الخلق، وكذلك قوله كما ذكرناه (أن التأويل العرفاني للقرآن هو تضمين، وليس استنباطاً، ولا إلهاماً، ولا كشفاً). وهنا نستطيع أن نرد على الدكتور محمد عابد الجابري بردود عدة:

أولاً- إذا كان الكشف والشهود وارداً إلهياً كما بينا وقد يرد للعارف بعد أن يطهر قلبه ويزكي نفسه، كيف يمكن أن يكون هذا الكشف موروثاً، انما الموروث هو فكرة أو نظرية ممكن أن تورث من جيل الى آخر، أما الوارد الالهي فهو غير موروث . وهل ممكن للوارد الالهي أن يتكرر؟ وإذا تكرر الوارد فما هو الا دليل على وحدة المنبع، وإن كان موروثاً فهو إذن موروث كونه قد مر على العارفين الحكماء السابقين .

ثانيا- إن العرفان منهج معرفي في نظرية المعرفة له أدواته الخاصة كأبي منهج يكتسب منها معارفه. له شروطه الخاصة ولايصح لكل من هب ودب. وإن من أهم أدواته الكشف، كما في أدوات المناهج الأخرى.

ثالثاً- جاء معنى الكشف بعد الاطلاع عليه في المقدمة انه يعني منه الالهام والنفث في العقول. وهذا قد حدث مع أم موسى كما أخبرنا القرآن الكريم .حيث يقول تعالى (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)^{١٧}، وإن دل هذا على شيء فهو يدل على أن الالهام هو ليس خاصاً بهرمس، وليس موروثاً منه انما هو يجعله الله لمن يشاء من عباده.

اتهام الأمام (علي عليه السلام) بأنه المؤسس الاول للعرفانية في الاسلام وإن نصوصه هرمنية

يقول الجابري علي بن ابي طالب هو المؤسس الاول في الاسلام للعرفانية وذلك في نصيحته لابن عباس عند مخاطبته الخوارج اي لاتخاطبهم بالقرآن فإنه حمال ذو وجوه ولكن خاطبهم بالسنة" فيتهم الامام علي عليه السلام ونصوصه بالهرمسية.^{١٨} اما نص قوله" يبرز تمسك علي بن ابي طالب بالسنة وأعراضه عن توضيف القرآن توضيفاً سياسياً سجالياً بالإضافة الى ماينسب إليه من خطب ذات مضمون هرمسي واضح، كالخطبة التي تتقدم مواد كتاب نهج البلاغة"^{١٩}

بعد أن علمنا بأن الجابري يقصد من العرفانية هو الموروث العرفاني الهرمسي، وهو الموروث العرفاني السابق للأسلام، وبعد ان قدمنا مقدمة حول الامام علي عليه السلام وبيننا علاقته ومكانته في القرآن وعند النبي صلى الله عليه وآله فإن من ثوابت الدين، وأهم ما تجب معرفته عن أمير المؤمنين عليه السلام، من قبل كل مسلم، مهما كان مذهبه: أن علي بن أبي طالب عليه السلام، لم يكن إلا خلاصة صافية لعلم النبي محمد ﷺ، في كل أفكاره ومفاهيمه، فاتهامه أنه أول من فتح الباب للهرمسية بالشكل القبيح الذي يعتقده، هو اتهام للرسول الأعظم محمد ﷺ، بلا ورع، أو وازع من دين، أو يقين،. كون هذا تجراً على مقام النبي الأعظم ووصيه عليهما السلام.

وقبل الدخول في نقد هذا المطلب لا بد أن نقدم مقدمات عدة وهي:

تأثر الجابري بهنري كوربان وموقفه من الشيعة

اولا- تأثره بهنري كوربان

يستعير الجابري خطابه لابل أحكامه من هنري كوربان وهي أحكام تكاد تكون مأخوذة حرفياً عنه، يقول الجابري في هذا الشأن وكما يقول هنري كوربان وكانت الشيعة أول من تهرمس في الاسلام، وقد ظهرت الهرمسية لديهم وكأنها (حكمة لدنية أي فلسفة نبوية)^{٢٠} ويعود الجابري في كتابه تكوين العقل العربي لترسيخ هذه المقولة استناداً على المصدر الذي أخذ منه كوربان نفسه، وهو البروفيسور فليس في الغريب أن يكون الشيعة أول من تهرمس في الإسلام، وأن يكون الإسلام قد عرف الهرمسية قبل أن يعرف قياس أرسطو وماورائياته كما يقول (هنري كوربان) الذي يستعيد نفس التأكيدات من ماسينيون ، قائلاً: وإذا ما عدنا إلى هنري كوربان نفسه لأخذ القضية من لسانه النصي الأصلي المباشر فإننا نقرأ قوله : وليس

من العجب أن يكون الشيعة أول من تهرمس في الإسلام، فالفلسفة النبوية عند الشيعة وهو مانجده حرفياً عند المستشرق هنري كوربان في كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية.^{٢١}

ثانياً- تعمد الجابري الى ارجاع الموروث الشيعي الى الهرمسة الامام الصادق عليه السلام و ابن حيان إنموذجاً

يذكر في كتابه بنية العقل العربي قوله الإمام الصادق الشيعي الأكبر وهو يحاول أن يؤسس للعرفان تأسيساً شرعياً^{٢٢}. و ذكر جورج طرابيشي في تعليقه الهامشي في مذبحة التراث كيف ان الجابري يرجع الكيمياء التي جاء بها ابن حيان الى السحر ومن الموروث الهرمسي حيث لايسع البحث ذكر التفاصيل، وحينما يعجز الجابري عن التعرف على طرق هذه الهرمسية وتشخيص معالمها لدى جابر بن حيان نجده يبرر ذلك بضيق المجال يقول: إن المجال لا يتسع هنا لعرض المضمون الهرمسي الرسائل جابر بن حيان بتفصيل... ويبقى السؤال معلقاً ما الذي قاد هذه الرؤية الهرمسية نحو جابر بن حيان حتى أفرزت لديه عقلاً مستقبلاً؟ والجواب هو أن الحقيقة وراء وصف واتهام جابر بن حيان بالعقل المستقل، وتوظيفه منتجات ذلك العقل هو انتمائه للتشيع، وهو ما يكشف عنه هنري كوربان، في قوله: ومقابل ذلك قام المستشرق «هوليمار» بجمع عدد من الوثائق الملائمة التي تدعم العرف السائد، فهو يؤكد أن جابر عاش في حدود القرن الثامن الميلادي الثاني للهجرة، وأنه كان تلميذاً للإمام جعفر الصادق^{٢٣}

وفي كتاب نقد النص يقول علي حرب" إن الجابري من خلال مشروعه يحاول أن ينتصر للفكر السني على حساب الفكر الشيعي، وللفكر المغربي على حساب الفكر المشرقي"^{٢٤}

ويقول الجابري إن الشيعة بمطلقهم ودونما تمييز بين إماميهم وإسماعيلهم قد وجدوا في الهرمسية المعين الذي لاينضب الذي استمدوا منه فلسفتهم البنيوية^{٢٥}

الخاتمة والنتائج

الخاتمة

تناول هذا البحث مشروع محمد عابد الجابري النقدي في كتابه بنية العقل العربي، ولا سيما موقفه من العرفان الإسلامي وإرجاعه إلى الموروث الهرمسي الأسطوري، وقد سعى البحث إلى تفكيك هذا الموقف ونقده من الداخل، مستعيناً بالمنهج التحليلي النقدي.

وقد تبين من خلال استقراء مادة البحث أن الجابري لم يتعامل مع التراث العرفاني الإسلامي تعاملاً موضوعياً منصفاً، بل انطلق من حكم مسبق مفاده أن كل ما يُنسب إلى الكشف والإلهام والشهود عند العرفاء إنما هو امتداد للأسطورة الهرمسية وتجلى لها في لبوس إسلامي. وقد أفضى هذا الموقف إلى نتائج إشكالية خطيرة، كان أبرزها اتهام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بأنه المؤسس الأول

للعرفانية الهرمسية في الإسلام، وهو اتهام يتجاوز حدود النقد الأكاديمي إلى المساس بثوابت الدين وأعلام المسلمين.

وقد كشف البحث أن الجابري لم يكن في موقفه هذا مستقلاً في حكمه، بل كان عالماً على المستشرق الفرنسي هنري كوربان، مستعيراً منه مصطلحاته وأحكامه بصورة تكاد تكون حرفية، مما يُضعف من أصالة المشروع النقدي الذي ادّعى صاحبه أنه يقوم على استقلالية المنهج ونقد الموروث من الداخل.

وختاماً، فإن العرفان الإسلامي الأصيل ظاهرةً روحية ومعرفية نبعت من صميم الوحي القرآني والسنة النبوية، وتشكّلت عبر تجارب ربانية حية لا يمكن اختزالها في قوالب أسطورية موروثة، وإن وُجدت تشابهات شكلية بين الثقافات فإنها لا تستلزم التبعية ولا تنفي الأصالة.

النتائج المستنبطة من البحث

أولاً: العرفان الإسلامي ظاهرة أصيلة بدأت بوادرها مع بزوغ الوحي المحمدي في صورة زهد وعبادة خالصة، ثم تطورت عبر ثلاث مراحل تاريخية متميزة، وليس صحيحاً اختزاله في كونه نسخة مُعرّبة من الموروث الهرمسي.

ثانياً: الكشف والشهود عند العرفاء ليسا ظاهرة قابلة للتوارث الثقافي كما يزعم الجابري، لأن الوارد الإلهي حالة روحية فردية مباشرة بين العبد وربّه، ومجرد التشابه في الصياغة لا يعني وحدة المصدر.

ثالثاً: استند الجابري في نقده للعرفان الشيعي على منهج الاستعارة من المستشرقين، ولا سيما هنري كوربان وماسينيون، مما يجعل مشروعه النقدي الذي يدّعي استقلالية الرؤية العربية يقع في التناقض مع نفسه.

رابعاً: إن إطلاق الجابري حكماً مطلقاً بأن كل المعارف الكشفية عند العرفاء ذات أصل هرمسي هو تعميم غير علمي، يتناقض مع مبادئ البحث الموضوعي الذي يستوجب التمييز والتفصيل لا الإطلاق والتعميم.

خامساً: إن اتهام الإمام علي عليه السلام بتأسيس العرفانية الهرمسية يكشف عن قراءة خارجية للتراث الشيعي، بعيدة عن الفهم الداخلي للنصوص وسياقاتها، وهو ما أقرّه ضمناً الباحث علي حرب حين كشف أن الجابري يسعى إلى الانتصار للفكر السني على حساب الفكر الشيعي.

سادساً: إن منهج الجابري في التعامل مع نصوص الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة منهج انتقائي تأويلي، يُخضع النص لأطروحة مسبقة، بدلاً من أن يُخضع الأطروحة لاختبار النص، وهو ما يُعدّ خللاً منهجياً جوهرياً.

سابعاً: إن الدفاع عن المنهج العرفاني لا يعني القبول بكل ما يُنسب إليه من انحرافات أو بدع، بل يعني التمييز الدقيق بين العرفان الإسلامي الأصيل المستند إلى الكتاب والسنة، وبين ما قد يكون دخيلاً عليه من تأثيرات أجنبية.

هوامش البحث

- ١ - راجع: حسيني، قوام الدين، العرفان الإسلامي، ص ٢٥ وما بعدها.
- ٢ - الغزالي، مجموعة رسائل الإمام الغزالي، ص ٢٢٥.
- ٣ - انظر: الكاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص ٦٥ وانظر: هامش ص ١٢٨ السبزواري، شرح الأسماء الحسنى، ص ٢١٢ الشيرازي الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج ٨، ص ١٣٧؛ الرازي، حدائق الحقائق ص ٢٤٥
- ٤ - المصري أصول المعرفة والمنهج العقلي، ص ١٩
- ٥ - عبد الكريم بن العربي بنيس الواضح المنهاج في نظم ما للتاج، ص ٤٧
- ٦ - [انظر: الترجمان، نظرية وحدة الوجود بين ابن عربي، والجيل، ص ٥٠٠
- ٧ - انظر: القيصري، شرح فصوص الحكم، ص ١٠٩
- ٨ - الادريسي، حسين، محمد عابد الجابري ونقد العقل العربي، ص ١٦٦-١٨٢.
- ٩ - الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، ص ٢٥٥.
- ١٠ - المصدر نفسه.
- ١١ - انظر: الجابري، محمد عابد، تكوين العقل العربي، ص ١٤.
- ١٢ - انظر: الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، ص ٢٦٠-٢٦٨.
- ١٣ - انظر: الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، ص ٣٧٩؛ تكوين العقل العربي، ص ٣٤٣.
- ١٤ - العابدي، محمد جابر، بنية العقل العربي، ص
- ١٥ - انظر: الجابري، عابد، بنية العقل العربي: ٢٥١
- ١٦ - المصدر نفسه.
- ١٧ - القصص، ٧
- ١٨ - انظر: الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، ص ٢٧٥.
- ١٩ - الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، ص ٢٧٥.
- ٢٠ - انظر: الجابري، عابد، نحن والتراث، ص ١٢٩
- ٢١ - انظر: الجابري، عابد، تكوين العقل العربي، ص ٢٠٠.
- ٢٢ - انظر: الجابري، بنية العقل العربي، ص ٢٧٦.
- ٢٣ - انظر: المصدر نفسه، ص ١٩٦-١٩٧.
- ٢٤ - حرب، علي، نقد النص، ص ٦٠
- ٢٥ - انظر: الادريسي حسين، محمد عابد الجابري ومشروع نقد العقل العربي، ص ١٧٣.

المصادر

القرآن الكريم

نهج البلاغة

١- الأملي، حسن زادة، شرح فصوص الحكم، منشورات بيروت-لبنان، بلاط.

- ٢- الإدريسي، حسين، عابد الجابري ومشروع نقد العقل العربي، مركز الحضارة، بيروت، ط ١، ٢٠١٠م.
- ٣- الاشتياني، احمد، مقدّمات تأسيسية في التصوّف والعرفان والحقيقة المحمدية، تحقيق ضياء الدين سجادي، كريم الاميري فيروز كوهي، دار الهادي، بيروت ٢٠٠١.
- ٤- ابن سينا، علي بن الحسين، الاشارات والتنبيهات، تحقيق سليمان دنيا، مؤسسة النعمان، ١٩٩٢م.
- ٥- ابن عربي، محمد بن علي، الفتوحات المكية (اربع مجلدات)، دار صادر-بيروت، الطبعة الاولى
- ٦- الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي دراسة تحليلية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٨٦م.
- ٧- الجابري، محمد عابد، نحن والتراث(قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي)، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط ٤، ١٩٨٥م.
- ٨- الجابري، محمد عابد، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط ١، ١٩٨٤م.
- ٩- الجابري، حسيني، قوام الدين، العرفان الإسلامي (بالفارسية)، مركز الدراسات الإسلامية، ط ١، مطبعة سبهر، قم .
- ١٠- حرب، علي، نقد النص، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ط ٤، ٢٠٠٥م.
- ١١- الغزالي، ابو حامد محمد، رسالة روضة الطالبين، ضمن رسائل فرائد اللآلي، نشر فرج الله ذكي الكردي، مصر، ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م
- ١٢- الغزالي، ابو حامد محمد، احياء علوم الدين، الحافظ العراقي، دار الكتب العربية، بيروت، الطبعة الاولى.
- ١٣-
- ١٤- القيصري، داود بن محمود، شرح فصوص الحكم، جلال الدين الاشتياني، فرهنگي، ايران- طهران، ط ٣، ١٣٨٦ش.
- ١٥- الكاشاني، عبد الرزاق، اصطلاحات الصوفية، تحقيق عاصم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٦ق.
- ١٦- مجموعة باحثين، محمد عابد الجابري، دراسة النظريات ونقدها، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، العتبة العباسية، النجف، ط ١، ١٤٤٢هـ-٢٠٢١م.
- ١٧- المصري، ايمن، اصول المعرفة والمنهج العقلي، الاميرة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط ١، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.